

القصيدة التائية

للفقيه الزاهد

أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود
الإلبيري الأندلسي

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله

[١]

قال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري ، رحمة الله

عليه :

[في القصيدة خطاب وعتاب ومحاوره مع مَنْ دعاه (أبا بكر) .
وكان هذا الرجل قد ذكر بعض معائب الشاعر ، وبلغه ما قال . وقد
جعل الشاعر هذا المنطلق فرصة لبسط آرائه في العلم والتقوى والتوبة
ونبذ الدنيا ؛ وإشارة إلى مقالة أبي بكر فيه ، وتجاوزاً لها في الوقت
نفسه . واختلط الحديث بين توجيه أبي بكر هذا والحديث عن النفس
من منطلق لوم الذات (من التخرج المستمر) وتضخيم الهفوات ، وإعلان
الخضوع المطلق لله تعالى .

بدأ الشاعر القصيدة بالكلام على غفلة الإنسان عما تصنعه آلة
الزمن في بني آدم (١ - ٥) ودعا أبا بكر - والخطاب عام - إلى العلم
النافع (٦ - ١٠) وبين منزلة العلم وحلاوته (١١ - ١٩) وأن الإنسان
مسؤول عن علمه والعمل به وعن جهله لوجهل (٢٠ - ٢٧) وسفه من
يفضل المال - وما يلحق به - على العلم (٢٨ - ٤٤) وهون شأن الدنيا
(٤٥ - ٥٤) فهي عرض فانٍ ، ودعا إلى الجدّ - دون الهزل - وإلى التوبة
والخضوع لله تعالى (٥٥ - ٦٠) وتعجيل التوبة (٦١ - ٦٥) وجعل
نفسه مثلاً يتحدث عنه (٦٦ - ٦٩) وعاد إلى خطاب أبي بكر ، وحذر

من الإخلاق إلى الدنيا ومن نسيان الآخرة (٧٠ - ٨١) وإلى تذكر يوم الحساب (٨٢ - ٨٦) .

وخرج إلى اعتراف عام بالذنوب وسرد لمعايب الإنسان المقصر (٩٧ - ٩٩) وإلى نصائح عامة أخلاقية ، في الحذر من رفاق السوء وأهل الجهل : ودعا إلى إباء الضيم ، وإلى الضرب في الأرض الواسعة سعياً وراء ذلك [.

[من الوافر]

- ١ تَفْتُ فَوَادَكَ الْإِيَّامُ فَتًّا وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا
- ٢ وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ : أَلَا يَا صَاحِبَ : أَنْتَ أُرِيدُ ، أَنْتَا !
- ٣ أَرَاكَ تُحِبُّ عَرُوساً ذَاتَ غَدَرٍ أَبْتَ طَلَّاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَتًّا
- ٤ تَنَامُ الدَّهْرَ وَيَحْكُ فِي غَطِيطٍ بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهَتْهَا
- ٥ فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى مَتَى لَا تَرَعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى ؟

(٣) العِرسُ : امرأة الرجل (وتقال أيضاً لرجل المرأة فيها عرسان) .
ويقال : أَبْتَ الطلاق بَتَّةً وإبتاتا : أوقعه باتاً . أما البتُّ فصدر فعل بَتَ : يقال : بَتَ الطلاق أي أوقعه ثلاثاً باتاً . وفي نهج البلاغة بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله : « يادنيا ! يادنيا ! إليك عني : أبي تعرضت ؟ أم إليّ تَشَوَّفَتْ ؟ لاحان حينك ! هيهات ! غري غري ، لاحاجة لي فيك : قد طلقتك ثلاثاً لارجعة فيها ! » .

(٤) يقال : غَطَّ النَّائِمُ غَطًّا وَغَطِيطاً أي : شخِرَ وَسِمِعَ لَهُ غَطِيطٌ ، وفي « كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » (٢١٢/١) عند ذكره الكلام المشهور : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) مانصّه : « هو من قول علي بن أبي طالب : لكن عزاه الشعرا في الطبقات لسهل التستري ولفظه في ترجمته ، ومن كلامه : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا ماتوا ندموا ، وإن ندموا لم تنفعهم ندامتهم » .

(٥) يقال ارعوى عن كذا أي : كفّ وَحَسُنَ رَجُوعُهُ عَنْهُ .

- ٦ أبا بكرٍ دَعَوْتُكَ لو أَجَبْتَا إلى مافيه حَظُّكَ إن عَقَلْتَا
 ٧ إلى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً مُطَاعاً إن نَهَيْتَ وإنْ أَمَرْتَا
 ٨ وَتَجَلَوْا بِعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تاجاً
 ٩ وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إذا اغْتَرَبْتَا وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إن ذَهَبْتَا
 ١٠ يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيّاً هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو
 ١١ تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا وَكَنْزاً لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّاً
 ١٢ خَفِيفَ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا وَيَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ
 ١٣ وَيَنْقُصُ أَنْ بِهِ كَفّاً شَدَدْتَا

(٦) (أبو بكر) كنية المخاطب المباشر في القصيدة ، وقد نبّه إليه مرة أخرى في القصيدة (انظر البيت ٨٧ وما قبله وما بعده) ، وجعل الحديث إليه وسيلة لبسط آرائه ومواقفه . ولم نهتد إلى المخاطب بهذه الكنية في القصيدة . لم أهتد إليه يقيناً ؛ ولعله أبو بكر بن الحاج المخاطب بالقصيدة [٣١] من هذا الديوان . ويدل البيت ٨٩ هنا على أن أبا بكر قد هجاه .
 (٨) العشا : ضعف البصر . ونذكر هنا بعض قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الأندلسي (يتيمة الدهر ١٠٢/٢) :

واعلم بأن العلم أرفع رتبة وأجل مكتسب وأسنى مفخر
 فاسلك سبيل المقتنين له تسد إن السيادة تقتني بالدفر
 والعالم المدعو حَبْرًا إنما سَمَاهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمْلُ الْمُحْبَرِ !

وقصيدة عبد الملك هذه من عيون شعر الحكمة .

(١١) العَضْبُ : السيف القاطع ، والمُهَنْدُ : السيف ؛ وأصل معناه من هَنَدَ السيف أي شحذه ، أو هو منسوب إلى الهند (المطبوع من حديد الهند) .

(١٢) في شعر الشافعي رضي الله عنه (ديوانه : ١٠٠)

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا يَمْتُ كَانَ مَعِيَ قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِ
 إن كنت في البيتِ كان العلمُ فيه مَعِيَ أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ !

(١٣) في الأصل (أن) ، كما هو مثبت ؛ والشرط في الجملة عندي مقبول .

- ١٤ فلو قد ذُقتَ مِنْ حَلَوَاهُ طَعْمًا لَا ثَرْتَ التَّعْلَمَ وَاجْتَهَدْتَا
١٥ وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٍ وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا
١٦ وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنِيقُ رَوْضٍ وَلَا خِدرٌ بِرَبْرَبِهِ كَلَفْتَا
١٧ فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَا
١٨ فَوَاطِبُهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ أَخَذْتَا
١٩ وَإِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا
٢٠ فَلَا تَأْمَنُ سَوَالَ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوَيْخٍ : عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا ؟
٢١ فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ : لَقَدْ رَأْسْتَا
٢٢ وَضَافِي ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ لِأَنْ تُرَى ثَوْبَ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا

(١٦) الخدر (بالكسر) ستر يُمدُّ للجارية في البيت ؛ وكلُّ ماواراك من بيت ونحوه . والرَّبرب : القطيع من بقر الوحش . شبه النساء الجميلات بالبقرة الوحشي .

(١٨) في الأساس : وَظَبَّ عَلَى الْأَمْرِ ، وَوَاطَبَ عَلَيْهِ ، وقول الشاعر : (وَاطِبُهُ) - أي : تعديّة الفعل إلى المفعول - لم يرد في كتب اللغة ؛ ولا أعرفه في آثار الأدباء ..

(٢٠) في كشف الخفا (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به) . رواه الطبراني ورواه الترمذي (٣٧٨/٢) . وفي سنن الدارمي (٨٢/١) عن أبي كبشة السلولي قال : سمعت أبا الدرداء يقول : إن من أشَرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا يُنتفعُ بعلمه .

(٢١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله تعالى (الفتح الكبير : ١٢٢/٢) .

(٢٢) روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنًا ! قال : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ؛ الْكِبَرُ : بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » .

٢٣	إِذَا مَالٌ يُفِيدُكَ الْعِلْمُ خَيْرًا	فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْقَدْ جَهَلْتَا
٢٤	وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ	فَلَيْتَكَ - ثُمَّ لَيْتَكَ ! - مَا فَهِمْتَا
٢٥	سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا	وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبُرْتَا
٢٦	وَتُفْقَدُ إِنْ جَهَلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ	وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَقَدْ فُقِدْتَا
٢٧	وَتَذْكُرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ	وَتَغْبِطُهَا إِذَا عَنْهَا شُغِلْتَا
٢٨	لَسَوْفَ تَعْضُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا	وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا
٢٩	إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ	قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْتَا
٣٠	فَرَاغِهَا وَدَعُ عَنْكَ الْهُوَيْنِي	فَمَا بِالْبَطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا
٣١	وَلَا تَحْفِلْ بِمَالِكَ وَالْهَ غَنَهُ	فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا
٣٢	وَلَيْسَ لَجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنَى	وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأْتَى

(٢٣) في الدعاء المشهور : « إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » وفيه « سلوا الله علماً نافعاً » و « اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ علماً نافعاً » .

(٢٥) كَبُرَ (بضم الباء) : عَظُمَ ، وهو يريد معنى التكبر والتعظيم .

(٢٧) تغبطها : أي تتمنى الحصول عليها (بعد تضييعها أو التشاغل والانشغال عنها) .

(٢٩) في سماء : أي في منزلة عالية (مادياً ومعنوياً) .

(٣٠) الهويني : التؤدة والرفق والسكينة والوقار .

(٣١) ينبه الشاعر السامع والقارئ على ما في القرآن الكريم من صفة المال في بعض الآيات التي ورد فيها

ذكر المال ؛ قال تعالى في سورة الأنفال (٢٨/٨) : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .

وفي سورة سبأ (٣٧/٣٤) ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ . وفي سورة

المنافقون (٩/٦٣) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

(٣٢) ضرب المثل بـ (ملك العراقين) لما هو واسع كثير من السلطة والملك ، ومنه قول

أبي الطيب :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين والياً !

٣٣	سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ	وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَ
٣٤	وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي	إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَ
٣٥	جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا	لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَ
٣٦	وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ	سَتَعْلَمُهُ إِذَا «طَه» قَرَأْتَ
٣٧	لَنْ رَفَعَ الْغَنَى لَوَاءَ مَالٍ	لَأَنْتَ لَوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَ
٣٨	وَإِنْ جَلَسَ الْغَنَى عَلَى الْحَشَايَا	لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَ
٣٩	وَإِنْ رَكَبَ الْجِيَادَ مُسَوِّمَاتٍ	لَأَنْتَ مِنْهَا هِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَ
٤٠	وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغُلُوفَانِي	فَكَمْ بِكَرٍّ مِنَ الْحِكْمِ افْتَضَضْتَ
٤١	وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الْإِقْتَارُ شَيْئًا	إِذَا مَا أَنْتَ رَبِّكَ قَدْ عَرَفْتَ
٤٢	فَإِذَا غِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ	إِذَا بِفِنَاءٍ طَاعَتِهِ أَنْخُتَا
٤٣	فَقَابِلٍ بِالْقَبُولِ صَحِيحٍ نَصْحِي	فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَ

(٣٣) النَّدِيَّ وَالنَّادِي : مجتمع القوم .

(٣٦) قَالَ الْبُلُوِي (أَلْف بَاء ١٣/٨) مَعْلَقًا عَلَى إِشَارَةِ الْبَيْتِ : يَرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه ١١٤/٢٠] .

(٣٨) الْحَشَايَا : ج الْحَشِيَّة : الْفِرَاشُ الْمَحْشُو ؛ وَهُوَ - كَمَا فِي مِثْنِ اللَّغَةِ - الْمَعْرُوفُ فِي الشَّامِ بِالطَّرَاحَةِ . وَمَا تَزَالُ الْكَلِمَةُ حَيَّةً فِي دِيَارِ الشَّامِ . وَالْبَيْتُ فِي مَعْنَى : رُتَبَةُ الْعِلْمِ أَعْلَى الرُّتَبِ .

(٣٩) سَوِّمُ الْفَرَسِ : أَعْلَمُهُ بِسُومَةٍ . وَالسُّومَةُ : السِّمَةُ وَالْعَلَامَةُ .

(٤١) الْإِقْتَارُ مَصْدَرُ اقْتَرَّ الرَّجُلُ : قَلَّ مَالُهُ وَضَاقَ عَيْشُهُ .

(٤٢) اسْتَعْمِلَ (مَاذَا) بَدَلًا مِنْ (كَمْذَا) لِأَنَّ الْمَعْنَى : إِذَا لَزِمْتَ طَاعَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ظَفَرْتَ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ . وَكَلِمَةُ (جَمِيلٌ) صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مُحَذَّوْفٍ مَقْدَرٌ .

- ٤٤ وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا
٤٥ فليُستَ هذه الدُّنيا بشيءٍ
٤٦ وغايَتُها إذا فُكِّرتَ فيها
٤٧ سُجِنَتْ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ
٤٨ وَتَطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ
٤٩ وَتَعْرِى إِنَّ لِبِئْسَ لَهَا ثِيَابًا
٥٠ وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفَنٍ خِلٍّ
٥١ وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ
٥٢ وَإِنْ هُدِمَتْ فَرَزْدها أَنْتَ هَدِمًا
وَتَاجَرْتَ الْإِلَهَ بِهِ رِبْحُتَا
تَسُوُّكَ حَقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
كَفَيْتُكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَ
فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَ
سَتَظْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَ
وَتُكْسَى إِنْ مَلَاسِهَا خَلَعْتَ
كَأَنَّكَ لَا تُرَادُّ بِمَا شَهِدْتَ
لِتَعْبُرَهَا فَجِدًّا لِمَا خُلِقْتَ
وَحَصَّنَ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَ

(٤٤) في سورة فاطر [٢٩/٣٥] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ . وفي سورة الصف [١٠/٦١] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ والمراد بالتجارة في الآيتين الكريميتين : المعنى المجازي .

و « التجارة » تَرَدُّ للعمل : يَتَرَتَّبُ عليه خيرٌ أو شرٌّ .

(٤٦) الفيء - هنا - ما كان شمساً فينسخه الظل ، وألُحِمَ بضم اللام وسكونها .

(٤٧) في الحديث : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . رواه مسلم وغيره .

(٥١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه ؛ قلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال : « مالي وللدُّنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وفي مسند الإمام أحمد (٢٤/٢) أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَعْضِ جَسَدِي فَقَالَ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى » .

- ٥٣ ولا تحزنْ على مافاتِ مِنْهَا إذا ماأنتَ في أخراكَ فُزْتَا
٥٤ فليسَ بنافعٍ ما نِلْتَ فيها مِنْ الفاني ، إذا الباقي حُرِمْتَا
٥٥ ولا تَضَحْكَ مع السُّفهاءِ لَهْوَاً فَإِنَّكَ سوفَ تبكي إن ضَحِكْتَا
٥٦ وكيفَ لك السُّرورُ وَأنتَ رَهْنٌ ولا تَدري أَتُفدى أم غَلِقْتَا
٥٧ وسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فيها وأَخْلِصْ في السُّؤالِ إذا سَأَلْتَا
٥٨ ونادِ إذا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرافاً بِما ناداهُ ذو النُّونِ بنُ مَتَّى
٥٩ ولازِمِ بابَهُ قرعاً عَساهُ سَيَفْتَحُ بابَهُ لكَ إن قرَعْتَا
٦٠ وأَكْثِرْ ذِكرَهُ في الأرضِ دأْباً لِتُذَكَّرَ في السَّماءِ إذا ذَكَرْتَا
٦١ ولا تَقُلْ الصُّبا فيه مَجالٌ وفَكَّرْ كم صَغِيرٍ قد دَفَنْتَا !

- (٥٣) راجع ما في التنزيل الحكيم (الحديد ٥٧ / الآيات ٢٢ - ٢٣) .
(٥٥) في سورة التوبة ٨٢/٩ : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .
(٥٦) غَلِقَ الرَّهْنُ : استحقَّه المُرْتَهِنُ ؛ وذلك إذا لم يُفْتَكْ في الوقت المشروط .
(٥٨) قال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٨٧ - ٨٨) : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
- قال القرطبي في تفسيره (٢٢٩/١١) : ذو النون لقب ليونس بن مَتَّى (عليه السلام) ولُقِبَ بذلك لابتلاع النون إياه .
- والنون : الحوت .

- (٦٠) في التنزيل الحكيم [البقرة ١٥٢/٢] : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرُون ﴾ .
(٦١) في كشف الحفا (١٤٨/١) : « اغتَمَّ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ ؛ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصَحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغَنَّاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ » . رواه الحاكم وصححه البيهقي عن ابن عباس . قال : قاله رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه .

٦٢	وَقُلْ لِي يَا نَصِيحُ لَأَنْتَ أُولَى	بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتُهَا
٦٣	تَقْطَعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمَاءً	وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا
٦٤	وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا	وَمَا تَجْرِي بِبَالِكَ حِينَ شِخْتَا
٦٥	وَكُنْتَ مَعَ الصَّبَا أَهْدَى سَبِيلًا	فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكِسْتَا
٦٦	وَهَا أَنَا لَمْ أَخْضُ بَحْرَ الْخَطَايَا	كَأَنَّ قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
٦٧	وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيًّا أَمْ دَفَرٍ	وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا
٦٨	وَلَمْ أَحْلُلْ بَوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ	وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهَمَلْتَا
٦٩	وَلَمْ أَنْشَأْ بَعْضٍ فِيهِ نَفْعٌ	وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا
٧٠	وَقَدْ صَاحَبْتَ أَغْلَامًا كِبَارًا	وَلَمْ أَرَكْ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحَبْتَا
٧١	وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ	وَنَهَنَّهُكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا
٧٢	لَيَقْبَحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي	وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

- (٦٢) يقال : هو ناصح ونصيح ، من فعل نصح ؛ يقال : نصحه ونصح له .
- (٦٣) فرط في الشيء : ضيعه وقدم العجز فيه ؛ وقصر .
- (٦٥) يقال : نكس المريض : إذا عاودته العلة بعد النقه . ونكس على رأسه : رجع عما عرفه .
- وفي التنزيل العزيز في ذكر قوم إبراهيم ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴾ .
- (٦٧) أَمْ دَفَرٍ : كنية الدنيا . (انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : ٢٥٧) .
- والحميا من الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها ، أو أخذها بالرأس .
- (٦٨) أصل معنى همل (الدمع) وانهمل : انصب ، وانهملت العين : فاضت .
- (٧١) نهته عن الأمر : كفه وزجره .
- (٧٢) شيخ قد تفَتَّى : سلك سبيل الفتيان .
- وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير شبابكم من تشبه بكهولكم ، وشُرُّ كهولكم من تشبه بشبابكم » رواه في بهجة المجالس ٢١١/٢

٧٣	فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي	ولو سكتَ المُسيءُ لَمَا نَطَقْتُهَا
٧٤	وَنَفْسِكَ ذُمَّ لَا تَذُمَّمُ سِوَاهَا	بِعَيْبٍ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَّمْتُهَا !
٧٥	فَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا	لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتُهَا
٧٦	وَمَنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ	أَمِرتَ فَمَا اتَّعَرَّتْ وَلَا أَطَعْتُهَا
٧٧	ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى	لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وَزِنْتُهَا
٧٨	وَتُشْفِقُ لِلْمُصَرِّ عَلَى الْمَعَاصِي	وَتَرْحَمُهُ ، وَنَفْسَكَ مَارَحِمْتُهَا
٧٩	رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبِطْتَ عَشَا	لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَهَا رَجَعْتُهَا !
٨٠	وَلَوْ وَاقَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ	وَنَاقَشَكَ الْحِسَابَ إِذَا هَلَكْتُهَا
٨١	وَلَمْ يَظْلَمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ	عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتُهَا
٨٢	وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَصْلِ فَرْدًا	وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى
٨٣	لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا	عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتُهَا

(٧٣) فَتَنَدَهُ تَفْنِيدًا : كَذَبَهُ ، وَعَجَزَهُ ، وَخَطَأَ رَأْيَهُ .

(٧٧) فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ [الْقَارِعَةُ ٩٠-١٠١] : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

(٧٨) فِي الْأَسَاسِ : أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهُ ، وَأَنَا مُشْفِقٌ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

(٧٩) رَجَعَ الْقَهْقَرَى : إِلَى الْوَرَاءِ ، وَخَبِطَ عَشَاءٌ : مَثَلٌ ، وَأَصْلُهُ مِنْ خَبَطَ النَّاقَةَ الَّتِي ضَعْفَ بَصَرُهَا ، فَهِيَ لَا تَمَيِّزُ أَيْنَ تَمْضِي وَمَاذَا تَصِيبُ فِي طَرِيقِهَا .

(٨٠) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ » . فَقُلْتُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فَقَالَ : « لَيْسَ ذَلِكَ الْحِسَابُ ، إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرُضُ ؛ مِنْ نَوْقَشِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ » .

(٨٢) فِي سُورَةِ مَرْيَمَ [٩٣-٩٥] : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ .

(٨٣) فِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ [الزَّمَرُ ٥٥-٥٦] : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ =

- ٨٤ تَفَرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ — فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا؟
- ٨٥ وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَاباً — وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا
- ٨٦ فَلَا تُكَذِبُ فَإِنَّ الْأَمْرَ جِدٌّ — وَلَيْسَ كَمَا احْتَسَبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا
- ٨٧ أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْبِي — وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا
- ٨٨ فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْخَازِي — وَضَاعِفُهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا
- ٨٩ وَمَهْمَا عَيْبَتَنِي فَلِفِرْطٍ عِلْمِي — بِيَا طُنْتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا
- ٩٠ فَلَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهِيَ عَارٌّ — عَظِيمٌ يُوْرِثُ الْإِنْسَانَ مَقْتَا
- ٩١ وَتَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثَّرِيَّا — وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا
- ٩٢ كَمَا الطَّاعَاتُ تَنْعَلُكَ الدَّرَارِي — وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا
- ٩٣ وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً — فَتُلْفَى الْبَرِّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَا
- ٩٤ وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا كَرِيماً — وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَا

= يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ .

- (٨٤) الهجير : نصف النهار في القيظ خاصة (أي في عز الصيف) .
- (٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث رسول الله ﷺ : « أهونُ الناس عذاباً يوم القيامة رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » . الفتح الكبير (٤٧٢/١) .
- (٨٦) أي لا يكن منك غفلة فتصدق ما يكذب به عليك في أحوال الآخرة ؛ واحتسبه : ظنه .
- (٨٩) الباطنة من الرجل : سريره .
- (٩٠) يقال : مقته يعقته مقْتاً أي : أبغضه أشد البغض وكرهه لقبيح ركه . وقد وردت الكلمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم .
- (٩١) الوجيه : ذو الجاه والقدر .
- (٩٢) أي تجعل الدراري (النجوم) كالنعل لك (على سبيل المبالغة وضرب المثل) .

- ٩٥ وَأَنْتَ الْآنَ لَمْ تُعْرِفْ بِعَبَابٍ وَلَا دَنْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَ
 ٩٦ وَلَا سَابَقْتَ فِي مِيدَانِ زُورٍ وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَيْتَا
 ٩٧ فَإِنْ لَمْ تَنَأْ عَنْهُ نَشِيتَ فِيهِ وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِيتَا
 ٩٨ وَدَنْسَ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهَّرْتَا
 ٩٩ وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ وَكَيْفَ لَكَ الْفَكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا
 ١٠٠ وَخَفَ أَبْنَاءَ جَنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبْنَتِي
 ١٠١ وَخَالِطَهُمْ وَزَايِلَهُمْ حِذَارًا وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لِمُسْتَا
 ١٠٢ وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ سَلَامًا لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلُمُ إِنْ فَعَلْتَا
 ١٠٣ وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ يَنَالُ الْعُصَمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتَا

(٩٥) العَاب : الوصمة .

(٩٦) الْخَبَب : ضَرْبٌ مِنَ الْعَدُوِّ . وَأَوْضَعْتَ النَّاقَةَ فِي سِيرِهَا : أَسْرَعْتَ .

(٩٧) نَشِبَ فِي الْأَمْرِ : وَقَعَ فِيمَا لَا مَخْلَصَ لَهُ مِنْهُ .

(١٠٠) فِي هَامِشِ الْأَصْلِ الْمَخْطُوطِ : الضَّرَاغِمُ : الْأَسُودُ . السَّبْنَتِي : النَّمْرُ .

(١٠١) كَانَ السَّامِرِيُّ عَظِيمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ - قِيلَ هُوَ مِنْهُمْ وَقِيلَ : دَخَلَ فِيهِمْ . دَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ

وَعِبَادَةِ الْعَجَلِ . قَالَ الْحَسَنُ : جَعَلَ اللَّهُ عِقَابَ السَّامِرِيِّ أَلَا يَمَاسُ النَّاسَ وَلَا يَمَاسُوهُ عِقَابُهُ لَهُ

وَلَمَنْ كَانَ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَدَّدَ عَلَيْهِ الْحَنَةَ بِأَنْ جَعَلَهُ لَا يَمَاسُ أَحَدًا

وَلَا يُمْكِنُ مِنْ أَنْ يَمَسَهُ أَحَدٌ . وَمَعْنَى زَايِلَهُمْ : فَارَقَهُمْ .

- رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْقُرْطُبِيِّ لِحَبْرِ السَّامِرِيِّ ٢٣٢/١١ وَمَا بَعْدَهَا . وَفِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ فِي سُورَةِ طه

[٩٧/٢٠] : ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ

وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

(١٠٢) فِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ [الْفَرْقَانُ ٦٣/٢٥] : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

(١٠٣) الْعُصَمُ (بِالضَّمِّ) جَمْعُ أَعْصَمَ ، وَهُوَ مِنَ الظُّبَاءِ وَالْوَعُولِ مَا فِي ذِرَاعِيهِ أَوْ أَحَدُهَا بَيَاضٌ وَسَائِرُهُ

أَسْوَدٌ أَوْ أَحْمَرٌ . وَأَرَادَ مُطْلَقَ الْوَعُولِ لِأَنَّهَا تَسْكُنُ الْجِبَالَ .

- ١٠٤ ولا تَلَبَثُ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ
 ١٠٥ وَغَرَبٌ فَالْغَرِيبُ لَهُ نَفَاقٌ
 ١٠٦ وَلَوْ فَوْقَ الْأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا
 ١٠٧ وَإِنْ فَرَّقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا
 ١٠٨ وَإِنْ كَرَّمْتَهَا وَنَظَرْتَ مِنْهَا
 ١٠٩ جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَاُمْتَثِلْهَا
 ١١٠ وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ
 ١١١ فَلَا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَهْوِي
 ١١٢ وَقَدْ أَرَدْتُهَا سَتًّا حَسَانًا
- يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتَا
 وَشَرِّقْ إِنْ بِرَيْقِكَ قَدْ شَرِقْتَا
 سَمَوًّا وَافْتِخَارًا كُنْتَ أَنْتَا
 إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَقَدْ سَلِمْتَا
 بِإِجْلَالِ فَنَفْسِكَ قَدْ أَهْنُتَا
 حَيَاتِكَ؛ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا
 لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطْلَلْتَا
 وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشِدْتَا
 وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِئَةٍ وَسِتِّتَا

(١٠٤) وفي شعر المتلمس (ديوانه : ١٩٦) ويجري كلامه مجرى المثل :

ولا يقيم على ضيم يسام به إلا الأذلان غير الحي والوئيد
 هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد!

(١٠٥) قوله : غَرَبٌ وَشَرِّقٌ : أي سر في الأرض وتحول عن موطن الضيم .

(١٠٧) في الأصل المخطوط : فَرَّقْتَهَا . وأقروها بالألف (فارقتها) لمناسبة المعنى الظاهر .

(١٠٩) امثل الطريقة : اتبعها فلم يعدها (لم يتجاوزها) .

(١١٢) الإشارة إلى عدد أبيات القصيدة . فهي في ١١٢ بيتاً ، كانت في الأصل ١٠٦ أبيات وزاد فيها ٦ أبيات .